

أوروبا من أجل المتوسط

من مؤتمر برشلونة إلى قمة باريس (١٩٩٥ - ٢٠٠٨) (*)

بشارة خضر (**)

أستاذ في جامعة لوفان،
ومدير مركز الدراسات والأبحاث بشأن العالم العربي المعاصر.

- ١ -

ليس هذا العمل دفاعاً عن السياسات الأوروبية إزاء بلدان المتوسط ولا اتهاماً لها، فهناك أعمال أخرى قد وضعت لهذا الغرض، وأنا شخصياً أرفض الانغماس فيها؛ لأن العمل الفكري لا يتواءم والأحكام القاطعة التي لا تقبل المرونة، ونادراً ما تكون الأمور بسيطة، ذلك لأن تحليل الإشكالية المعقدة - بصرف النظر عن الاتهامات أو المجاملة أو حتى الإغراق في الخيال - يتطلب قوة الملاحظة والتحليل، كما يتطلب الحفاظ على مساحة للنقد تقطع مع خطابات المناسبات والحماسة العاطفية واللقاءات الدبلوماسية.

فلا شيء أكثر إزعاجاً بهذا الصدد من ذلك الخطاب الذي يُجمع على دور أوروبا في المتوسط، وعلى الأخوة والتضامن المتوسطيين.

فكم من الوقت سنستغرق حتى نشعر بأننا مضطرون إلى الاتفاق على خطاب ما، أو على عقد مؤتمر ما، دون أن نذكر فرنان بروديل ونستذكره في جميع القضايا؛ إنني أتحدى أن كثيرين ممن يذكرونه لم يقرأوا له شيئاً. ثم لماذا لا نذكر ما كان يقوله جاك بيرك عن المدينة الفاضلة الخلاقة والأندلسيات الجديدة^(١)، تلك الأندلسيات التي نستعيد وجودها دائماً، والتي

(*) تمثل هذه الدراسة خلاصة الكتاب الذي صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية (٢٢٨ ص).

(**) له عدة مؤلفات، منها: أوروبا والوطن العربي: القرابة والجوار (١٩٩٣)؛ أوروبا وبلدان الخليج العربية: الشركاء الأبعد (١٩٩٧)، وأوروبا وفلسطين: من الحروب الصليبية حتى اليوم (٢٠٠٣). البريد الإلكتروني: bichara.khader@uclouvain.be.

Jacques Berque: *Arabies: Entretiens avec Mirese Akar*, les grands auteurs (Paris: Stock, 1978), (١) et *Mémoires des deux rives* (Paris: Seuil, 1989).

نحمل أنقاضها المكسّسة، وأملها الذي لا يُمل^(٢)؟ أو العبارات الشعرية لبدرامات فيجيفيتش في كتابه **الصلاة اليومية للمتوسط** أو مؤلفاته الأخرى؟ فهو الذي يذكّرنا بأنه إذا كان الأطلسي بحر المسافات فإن المتوسط بحر الجوار وإن المتوسط ليس جغرافياً وحسب... إنه مصير بل إنه مصيرنا الذي يبدأ من جديد مع كل موجة؛ بل إننا نسأل بصفة خاصة^(٣)؛ لماذا لا نذكر شاعر الحب العربي الكبير الذي كان يدعو إلى ملتقى المتوسط المتصالح ألا وهو الشاعر أدونيس؟ ألم يكتب أمين معلوف أجمل الصفحات حول الهويات المتعددة، التي يسمّيها أحياناً الهويات القاتلة؟ والكاتب المصري طه حسين، ألم يكن مدافعاً لامعاً عن انتماء مصر إلى البحر المتوسط والتلاحق الثقافي عبر الضفتين؟

إن عملية برشلونة، ربما تكون قد انطلقت بالفعل، لكنها تسير ببطء شديد. إزاء ذلك، إما أن نبثّ فيها طاقة جديدة حتى تأخذ طريقها لتقود البلاد المتوسطية نحو مزيد من التنمية والاستقرار والأمن، وإما أن نغيّر السياسة والنموذج.

إن القضية هنا ليست منصبّة على سمعة بروديل - التي لا جدل فيها - باعتباره مؤرخاً للمتوسط، ولكن على ذلك النسيان - الذي لا يمكن قبوله - لحقيقة أن البحر المتوسط له ضفاف عديدة، وأن كل هذه الضفاف قد ارتوت بحكمة أشهر الفلاسفة والمؤرخين والشعراء والمحلّين؛ ومما يؤسف له، أن من انتمى منهم إلى الضفة الجنوبية بقي غير معروف على نطاق واسع للجمهور الأوروبي العريض، مما يشهد على أبشع أنواع انعدام التوازن؛ ألا وهو انعدام التوازن الثقافي.

- ٢ -

يشكل هذا العمل استكمالاً لأعمالنا الحديثة الأخرى بشأن أوروبا والعالم العربي والبحر المتوسط^(٤). ويهدف إلى إجراء عملية حساب ختامي للشراكة الأورو - متوسطية، التي تسمى «عملية برشلونة»، وكذلك إلى القيام بتحليل نقدي لسياسة الجوار الأوروبية؛ وأخيراً، يهدف إلى

Jacques Berque, *Andalousies: Leçon de cloture au College de France* (Paris: Sindbad, 1981), (٢) p. 42.

Pedrag Matvejevitch, «La Méditerranée comme destin,» *GEO*, no. 355 (Spécial Méditerranée: (٣) Richesses et enjeux d'une mer unique) (septembre 2008), pp. 56-58.

Bichara Khader: *L'Europe et le Monde Arabe: Cousins, voisins* (Paris: Publisud, 1992); *Le Grand Maghreb et l'Europe: Enjeux et perspectives* (Paris: Publisud, 1995); *L'Europe et les pays arabes du Golfe: Des partenaires distants* (Paris: Publisud, 1994); *L'Europe et la Palestine des croisades à nos jours* (Paris: L'Harmattan, 1999); *L'Europe et la Méditerranée: Géopolitique de la proximité* (Paris: L'Harmattan, 1995); *Le Partenariat euro-méditerranéen après la conférence de Barcelone*, préf. de Bernard Ravenel (Paris: L'Harmattan, 1998), et *Le Partenariat euro-méditerranéen après la conférence de Barcelone* (Paris: L'Harmattan, 2001).

فهم الدوافع الخفية وراء المشروع الجديد للرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي الخاص بالاتحاد المتوسطي، الذي أصبح منذ نداء روما في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ «الاتحاد من أجل المتوسط»، ثم أُطلق عليه منذ اجتماع المجلس الأوروبي المنعقد في ١٣ - ١٤ آذار/مارس عام ٢٠٠٨ «عملية برشلونة: الاتحاد من أجل المتوسط»؛ وأما في بيان مرسيليا ٣ - ٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨، فقد سُمّي «الاتحاد من أجل المتوسط».

وفي ما يتعلق بسياسة الجوار، لم تكن لديّ فترة زمنية كافية حتى أرجع إلى الوراء لمحاولة إجراء حساب ختامي، وبالتالي فإن الحديث المخصص لها محدود.

بالنسبة إلى المولود الجديد المسمّى: «عملية برشلونة: الاتحاد من أجل المتوسط»، فإنه ما زال في المهد، وليس في مقدورنا أن نعرف في هذه المرحلة ما إذا كان سيصبح قوياً أو ضعيفاً، وما إذا كان سيشبه أبويه: «عملية برشلونة» و«سياسة الجوار» أو سيمتيز عنهما، وتكون له سياسة واضحة.

وحيث إننا نعرف القليل عن تلك الولادة الجديدة؛ لذا فقد فضلت أن أحلل الفكرة الرئيسية لمُنْتَجها «نيكولا ساركوزي» مع التحليل الدقيق لخطاباته في طولون وطنجة وردود الفعل الدولية على هذا الخطابات حول الاتحاد المتوسطي؛ وكذلك لأتساءل: لماذا هذه الفكرة الجديدة؟ ولماذا الآن تحديداً؟ وهل هو اتحاد في المشروعات أو هو مشروع اتحاد؟ ولماذا تمّ الانتقال من مصطلح «الاتحاد المتوسطي» إلى مصطلح «الاتحاد من أجل المتوسط»؟ وأخيراً، لماذا استعاد الاتحاد الأوروبي الفكرة الفرنسية تحت اسم «عملية برشلونة: الاتحاد من أجل المتوسط»؟ وما الإجابة التي يحملها لنا انعقاد المفوضية في أيار/مايو ٢٠٠٨ عن هذا السؤال؟ وينتهي الفصل باقتراح شخصي سمّيته: «الشراكة الإقليمية المتميزة».

ويرد بالتأكيد حديث عن الهجرات وعن التحولات الاقتصادية، لكن ذلك يأتي في سياق الإشارة إلى بديهية أساسية لهذا العمل؛ وهي أن عملية برشلونة في نهاية المطاف لم تكن قُداساً إعلامياً كما يصفها بعض المراقبين المفرطين في النقد، ولم تكن تحولاً تاريخياً، وكذلك - من باب أولى - لم تكن نقطة فاصلة كما يصفها بعض حملة المباخر غير المسؤولين في الاتحاد الأوروبي. إن عملية برشلونة كانت مجرد مرحلة في العلاقات المضطربة بين صفتي المتوسط، فهل كانت خطوة في هذا الاتجاه الصحيح؟ هذا هو السؤال الذي يحاول هذا العمل الإجابة عنه تحديداً.

- ٣ -

بطبيعة الحال الكثيرون ينتقدون الشراكة الأورو - متوسطية، التي تسمى «عملية برشلونة»؛ في هذا الصدد، فإن الرئيس ساركوزي، نفسه وقبل أن تعتدل لهجته، كان لا يحرص على مضع كلماته. فبالنسبة إليه، إنها إخفاق (خطاب طولون في شباط/فبراير ٢٠٠٧). وفي الواقع، كان هناك الكثير من العوامل التي تتضافر لتدعم نظرية إخفاق العملية، ووصفت على أنها جموح مكسور وطموح محبط، وقد كتب بعض الخبراء بالفعل نعي عملية برشلونة على شاهدة القبر، وهناك آخرون نشروا مطاعنهم كما حلا لهم ضد الاتحاد الأوروبي؛ فالاتحاد هو

الطرف الذي يقترح ويتصرف ويفرض ويمارس القيادة التوجيهية والمعيارية والمالية، وهو الذي يمتلك مقاربة أمنية للحدود (فلا مجال للحديث عن حرية الانتقال)، كما إنه يحمي نفسه خلف السياسة الزراعية المشتركة (PAC) ليضع العراقيل أمام حرية انتقال المنتجات الزراعية؛ كما إن إدارته لبرامج التنمية الزراعية هي إدارة بيروقراطية. وأخيراً، فإن الوكالات الكبرى ذات الإمكانيات اللوجستية الضخمة، هي المستفيد الوحيد من تلك المساعدات، كما إن شراكته التي يتغنى بها تتعارض مع قلة استثماراته في منطقة حوض المتوسط. ولا يعمل هذا الاتحاد على زج المجتمع المدني بشكل كافٍ، ولا يُدخل في إطاره سوى اللاعبين الذين يلقون الخطب الرنانة دون أن يكون لهم رسوخ محلي. كما يطور الاتحاد الأوروبي خطاباً مختلاً بشأن الحوار الثقافي والديني المتصاعد إزاء واقع الإسلاموفوبيا الزاحف، الذي لم يستطع الاتحاد أن يصدّه.

لا أشك في أن الكثير من هذه الانتقادات مشروع؛ وبالنسبة إليّ شخصياً يحصل أن أتساءل بشأن تصرفات الاتحاد الأوروبي في هذا الصدد. إن هذا العمل الذي أقدمه لا يجامل

أحداً؛ ولكن من فرط محاولات وضع العراقيل أمام الاتحاد الأوروبي، قد نخاطر بتناسي الضغوط من كل لون التي ترهق نشاطه الخارجي، أو بالأحرى تبخس بشكل مسبق تقريباً قيمة كل ما يقوم به هذا الاتحاد في منطقة الجوار. ومن ناحية أخرى، لماذا يتم التركيز على الاتحاد الأوروبي وحده؟ هل بقية البلدان المتوسطة فوق مستوى الشبهات؟ هل احترمت

**البحر المتوسط أضيق من أن
يفرّق وأوسع من أن يُخلط.
إنه البحر الواقع في وسط
اليابسة، وهو جسر يربط،
وليس حفرة تفصل.**

تلك البلدان التزاماتها المتعلقة بفتح الأسواق والإصلاح السياسي والشفافية الإدارية والمؤسسية؟ هل قامت تلك الدول بتقوية العلاقات في ما بينها وإعادة وصل خيوط الحوار والسير في سبل التعاون؟ هل قامت بالعمل اللازم لزيادة جذبها للاستثمارات العالمية؟ لماذا تغلق الحدود بين الجزائر والمغرب، وهما بلدان شقيقان، منذ عام ١٩٩٤؟ ولماذا تظل قضية قبرص معلقة؟ لماذا تقبل سورية بالمشاركة في عملية برشلونة ولكن من خلال جرجرة رجليها؟ لماذا تدمر إسرائيل البنية التحتية في لبنان وتحاصر غزة وتبني الجدار الذي يبقر فلسطين، وتواصل بإصرار بناء المستوطنات على الأراضي التي تحتلها منذ عام ١٩٦٧ حتى الآن؟

يمكننا أن نواصل هذا السيل من الأسئلة بقدر ما نشاء، ولكن لسنا بمقام توزيع الانتقادات بشكل عادل وتذكير كل طرف بتقصيره، إلا أنني أريد ببساطة أن أذكر بأن عملية برشلونة ربما تكون قد انطلقت بالفعل، لكنها تسير ببطء شديد. وإزاء تلك الملاحظة؛ فإما أن نبث في عملية برشلونة طاقة جديدة حتى تأخذ طريقها لتقود البلاد المتوسطة في الاتجاه المطلوب نحو مزيد من التنمية والاستقرار والأمن، وإما أن نغيّر السياسة والأنموذج.

من وجهة نظري، أعتقد أن كلمة: «شراكة» هي كلمة روتينية إجرائية أكثر مما هي رؤية. ولكي يثبتوا أن الاتحاد يعمل، فإن الموظفين يسبحون في عدد الاجتماعات المعقودة، والبرامج المطروحة، والأموال المحررة، والأعمال التي بوشر بها وسياسة الجوار الجديدة.

ولقد سمعت أحد الموظفين في الاتحاد الأوروبي يقول: «إذا كانت فلسطين ما تزال موجودة فذلك بفضل المساعدات الأوروبية»، بينما يتباهى موظف آخر بقوله: «إن إسرائيل والعرب يلتقون ويتحادثون؛ ولكن المكان الوحيد الذي يتناقشون فيه هو الاتحاد الأوروبي»، ويؤكد ثالث قائلاً دون موارد: «سيسوء الوضع أكثر دون الشراكة الأورو - المتوسطية». وأنا أريد أن أدعو هؤلاء الموظفين إلى الذهاب إلى شوارع القاهرة أو الدار البيضاء ليسألوا شباب البحر الأبيض المتوسط عما يعرفونه عن الشراكة، ويسألوا كذلك الملايين الذين لا يحلمون إلا بشيء واحد وهو الهجرة عن تلك الشراكة، كما أريد أيضاً من موظفي الاتحاد الأوروبي أن يقوموا بجولة في قلقيلية أو بيت لحم في فلسطين المحتلة لرؤية أسوار الأسمنت المسلح التي تفصل السكان من الجانبين، بينما يتناقش الوزراء الإسرائيليون والفلسطينيون والعرب والأوروبيون في بروكسل أو غيرها بشأن الشراكة. إن هذه المعايينات تكشف، إذا دعت الحاجة، التفاوت المؤسف بين الخطابات بشأن الشراكة وممارسات الشركاء على الأرض. وهكذا، ورغبة في المصارحة، يتوجب وفق قول ثيري فابر (Thierry Fabre)^(٥) «تعيين الخلافات» و«تشخيص أوجه عدم الفهم من أجل الخروج من زمن الأوهام».

ولكن ليس مسموحاً برمي الطفل مع مياه الحمام. لقد سمحت عملية برشلونة بنوع من الاستقرار على مستوى الاقتصاد الكلي، وفتح الأسواق على استحياء، وبعض الإصلاحات السياسية المحدودة، وقد سمحت كذلك بالتقاء منظمات المجتمع المدني، ودفعت باتجاه الاهتمام الأكاديمي بالقضايا المتوسطية، كما حفزت الأقاليم والمدن في مجال المواضيع المشتركة، وسهّلت الشراكة بين المتعاملين الاقتصاديين. كل هذا لا يمكن إنكاره، لكنه يبقى غير كافٍ لمواجهة النزاعات المستعصية التي تسمم العلاقات، والتحديات التي يفرضها المجال المتوسطي في خلق فرص العمل، والحد من الفقر، وإصلاح التعليم، والانفتاح الثقافي، والإصلاحات السياسية والمؤسسية.

وهذا يعني كم هي ضرورية مراجعة مسألة الشراكة بعمق: الرؤية والمنهج والآليات. فهذا العمل الذي بين أيدينا لا يقدم وصفات جاهزة، لأنه كما يقول المثل العربي: «العين بصيرة واليد قصيرة»؛ لكنه يريد الإشارة إلى أن الاتحاد الأوروبي لا يستطيع أن يصبح قاطرة حوض المتوسط بمجرد إطلاقه سياسة جديدة، سواء كانت تلك السياسة «الجوار» أو «الاتحاد من أجل المتوسط»، لكنه يصبح كذلك بتبني سلوك يقطع مع منظور البحر المتوسط المهدد، ويعيد تشييد الفكرة العزيزة على إدغار موران. ومن ناحيتي، فقد اعتدت على القول إن البحر المتوسط أضيق من أن يُفَرَّق، وأوسع من أن يُخلط. فهو ليس جدولاً ولا محيطاً، بل هو كما يسميه العرب «البحر الأبيض المتوسط»، إنه البحر الواقع في وسط اليابسة، وهو جسر يربط، وليس حفرة تفصل □

Thierry Fabre, «Pour une Communauté méditerranéenne: Entre le temps de la colère, des (٥) illusions et de l'espoir.» *La Pensée de Midi: Désirs de guerre, espoirs de paix* (Actes Sud) (novembre 2008), p. 117, < http://www.cairn.info/load_pdf.php?ID_ARTICLE=LPM_026_0110 > .